﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ كَيۡفَ بَدَأَ ٱلۡخَلۡقَۚ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ ٢٠﴾ [العنكبوت: 20]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِما قَبْلَها:

الاستدلال بما هو مَـزْئيٌّ في أنفسهم إلى ما هو بعيدٌ عنهم لم يألفوه

بعدَ أنْ ساق الدَّليلَ المشاهَدَ في الأنفُسِ ممّا هو مَرْئيّ منهم، وأنكرَ عليهم تركَ الاستدلال به؛ أرشَدَ إلى السّير في الأرض للاعتِبارِ بما في الآفاقِ مِنَ الآياتِ المُشاهَدةِ، من أحوالِ إيجاد المخلوقات وتعاقبِ الأمم؛ لأنّ التَّعوُّد صَرَفَ عقولهم عن التّأمُّل، فقال: ﴿قُلۡ سِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَٱنظُرُواْ﴾[1]، ولَمّا كانَ ما ذُكِرَ من قصّة إبراهيم ووعظه قومَه وإقامة الحُججِ عليهم لإثباتِ المعاد إنّما سيق تسليةً للنّبيّ ﷺ ووعظًا لقومِه؛ أتبعَ ذلكَ بخطابٍ للنّبيّ ﷺ ليخاطبَ قومَه الّذين يدّعون الانتسابَ إلى إبراهيمَ عليه السلام بأنّهم إنْ لم يقتدوا بإبراهيم ويتأمّلوا ما أقامَ من الدّليل القاطع والبرهان السّاطع فليسيروا في الأرضِ ويتأمّلوا في دلائله.

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿سِيرُواْ﴾: (سير) أصلٌ يدلّ على مُضيٍّ وجَرَيانٍ، يُقالُ سارَ يَسيرُ سَيْرًا، وذلك يكون ليلًا ونهارًا[2]، وسارَ القَومُ: إذا امتَدّ بهم السَّيْرُ في جِهَةٍ توَجَّهوا لَها، والسَّيْرُ: الذّهابُ، والمُضيُّ في الأرض، والانتقالُ من مكانٍ إلى مكانٍ، والتّسْيير ضربان: تسخيرٌ، كقوله سبحانه: ﴿وَسُيِّرَتِ ٱلۡجِبَالُ﴾ [النبأ: 20]، واختيارٌ كقوله سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُسَيِّرُكُمۡ﴾ [يونس: 22][3]، والمقصود بالأمر بالسّير في الآية:

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230، والمَراغيّ، تفسير المَراغيّ: 20/ 127.
(2) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (سير).
(3) الرّاغب، المفردات: (سار)، والزَّبيديّ، تاج العروس، ومحمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (سير).

السّير بِقَصْدِ التّدبّر والتّأمّل والاعتبار[1] أي: سيروا لتعلموا أنّ الّذي بَدَأ الخَلْقَ هو اللّهُ لا خالقَ غيرُه[2].

2) ﴿يُنشِئُ﴾: (نشأ) أصلٌ يدلّ على ارْتِفاعٍ في شَيْءٍ وسُموٍّ[3] وأنشأ يُنْشِئ إنشاءً، فهو مُنْشِئ، وأنشأ الشّيءَ: أقامه، أوجدَه وأحدَثه، وأَنْشَأَهُ اللّهُ: خَلَقَهُ وأبدعه، والاِسْمُ النَّشْأَةُ، وأَنْشَأَ يَفْعَلُ كَذا أي ابْتَدَأَ، وأَنْشَأَ اللّهُ الخَلْقَ، أي: ابتَدَأَ خَلْقَهم[4]، والمقصود بـ﴿يُنشِئُ﴾ في الآية: يُبْدِئُ تلك البَدْأَةَ الآخرةَ بعد الفناء، فاللّهُ قادرٌ على إنشاءِ جميعِ خلقِه بعد إفنائه، وإعادتهم إلى الحياة مرّةً أخرى، بعد أنْ أوجدهم في المرّة الأولى[5].

3) ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾: اسمٌ من الفعل (أنشأ) يُنْشِئ، إنشاءً، فهو مُنْشِئ، وأنشأ الشّيءَ: أقامه، أوجدَه وأحدَثه، وأَنْشَأَهُ اللّهُ: خَلَقَهُ وأبدعه، وأَنْشَأَ يَفْعَلُ كَذا أي ابْتَدَأَ، وأَنْشَأَ اللّهُ الخَلْقَ، أي: ابتَدَأَ خَلْقَهم[6] والمراد بالنّشأة الآخرة في الآية: إعادةُ الخلقِ في الآخرة بعد فنائهم، أي: الحياة بعد الموت، وهو النّشور[7].

4) ﴿ٱلْأَخِرَةَ﴾: (أخر) أصل وهو خِلافُ التَّقَدُّم، والآخِرُ: نَقيضُ المُتَقَدِّم[8] والآخِرُ هو الّذي يبقَى بعدَ هلاكِ كلِّ شيءٍ، فهو موضعٌ للنِّهاية، وهو تالٍ لِلْأوَّلِ، وتأنيثُهُ: الآخرةُ وهي مقابِلَةُ الأولى وسُمّيَتِ الْآخِرَةُ آخِرَةً؛ لِأنَّها بعد الدُّنْيا[9] والمرادُ بالنَّشأةِ الآخرة في الآية: إعادةُ الخلقِ في الآخرة، للبعث والنّشور[10].

المَعْنى الإجْماليُّ:

يأمُرُ اللّه سبحانه رسولَه ﷺ أنْ يَلفِتَ أنظارَ قَومِه من المُشرِكينَ المُنكِرينَ للبَعثِ بعدَ الموتِ إلى النَّظرِ والتَّأمُّلِ في صنعِ اللّهِ في الخلقِ والإنشاء، قائلًا له: قُلْ لهم يا محمَّدُ:

(1) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير البسيط: 11/ 25.
(2) الواحديّ، التّفسير البسيط: 17/ 508.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (نشأ).
(4) الجوهريّ، الصّحاح، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نشأ).
(5) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، وسيّد طنطاويّ، التّفسير البسيط: 11/ 25.
(6) الجوهريّ، الصّحاح، وأحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (نشأ).
(7) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، والحجازي، التّفسير الواضح: 2/ 864.
(8) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللّغة: (أخر).
(9) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 149.
(10) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21، والنّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 670، والحجازي، التّفسير الواضح: 2/ 864.

سيروا في الأرضِ، فانظُروا كيف بَدَأَ اللّهُ الخَلْقَ مِن العَدَم، ثمَّ هو سُبحانَه يُنْشِئُ الخَلقَ نَشأةً ثانيةً بعدَ فنائِه، إنَّ اللّهَ على كُلِّ شَيءٍ قديرٌ، يَبْدَأُ الحياةَ ويعيدها بهذه القدرةِ المُطْلَقَةِ الّتي لا تَتَقَيَّد بتصوّرات البشرِ القاصرة.

تتبّعُ صنعِ اللهِ وآياته في الخلقِ والإنشاء يقضي بأنّ الّذي أنشأ يعيدُ بلا عناء

❁ الإيضاحُ اللُّغَويُّ والبَلاغيُّ:

بلاغةُ الفصل في ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾:

اعتراضٌ انتقاليٌّ من الإنكارِ عليهم لتركهم الاستدلال بما هو مَرْئيٌّ منهم من أنفسهم ومن ما حولهم، إلى إرشادهم للاستدلال بما هو بعيدٌ عنهم من أحوالِ إيجاد الأمم والموجودات الأخرى[1]؛ ليرَوا الحياةَ الأولى في صورٍ مختلفةٍ وظروفٍ متفاوتةٍ تمامًا، وليطّلعوا على عموميّة قدرةِ الله، وليستيقنوا قدرته على إعادةِ هذه الحياة؛ لأنّ الإنسانَ لَمّا نشأ فيها من زمنِ الطّفولة فما بعده قبل حدوثِ التّفكير في عقله اعتادَ أنْ يمرَّ ببصره عليها دون استنتاج من دلائلها، حتى إذا شاهد أمثالَها ممّا كان غائبًا عن بصره جالتْ في نفسه فكرة الاستدلال، فالسيرُ في الأرض وسيلةٌ جامعةٌ لمختلف الدّلائل[2].

إرشـــــادٌ لـلاسـتـدلال بالبعيد تنبيهًا للفكر الّذي غفلَ عمّا اعتاده من مشاهدةِ القريب

دلالةُ الخطاب في قوله ﴿قُلْ﴾:

الخطابُ بفعل الأمر ﴿قُلْ﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ للنّبيّ ﷺ، أي: (يا محمّد قل لقريش سيروا في الأرض فانظروا)؛ وإنّما لم يوجِّهِ اللّهُ تعالى للكافرين الخطاب، وإنّما خاطبهم على لسانِ النّبيّ ﷺ؛ تفنُّنًا في البيانِ وتنشيطًا للأذهانِ حتى كأنَّ الكلامَ صدَرَ مِنْ قائِلَيْنِ[3]، وترفيعًا لقدرِ نَبيِّه ﷺ بإعطائه حظًّا من التّذكير معه كما قال تعالى: ﴿فَإِنَّمَا يَسَّرْنَٰهُ بِلِسَانِكَ﴾ [الدخان: 58][4]، وللدّلالة على أنّ

بـيـانٌ يُـظـهـرُ أهـمّـيّـة المـقـول ووظيفة الرّسول ﷺ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.
(3) وهذا إن كان الخطاب في الآيتين السابقتين من خطاب الله تعالى لقريش، أو من كلام إبراهيم لقومه.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 29/ 46.

هذا الأمر بالسّير في الأرض والنّظر هو من عند الله تعالى، وأنّ النّبيّ ﷺ مجرّدُ مُبَلِّغٍ ورسولٍ أمين، وهذا يناسبُ ما ورد في السّياق، وهو قوله تعالى: ﴿وَمَا عَلَى ٱلرَّسُولِ إِلَّا ٱلْبَلَٰغُ ٱلْمُبِينُ﴾، وللدّلالة على الاهتمام بالمقول؛ فإنّ أصلَ الأمرِ بالقول في مقام التّصدّي للتّبليغ دالٌّ على الاهتمام[1]، ويحتملُ أنْ يكون الأمر ﴿قُلْ﴾ خطابًا للجميع، بما يدلّ على أسلوبٍ حواريٍّ في إقامةِ الحجّة، أي أمَرَ كلّ واحدٍ بأنْ يقول ذلك[2].

الغرض من التّعبير بالأمر:

إرشـادٌ وحـضٌّ عـلى الـسـيرِ في الأرضِ للتّأمّل والتدبّر في آثارِ قدرةِ الله

غرضُ التّعبير بفعْلِ الأمرِ في قولِه تعالى: ﴿سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ﴾ الإرشادُ والحضُّ، أي: أرشدَ إبراهيمُ قومه وحضّهم على السيرِ في الأرض؛ لتنبيهِ الحواسّ والمشاعرِ برؤيةِ المشاهد الجديدة، ودعوتها إلى التّأمّل والتّدبّر في آثارِ قدرةِ الله على إنشاءِ الحياة الّتي تبرزُ في كلِّ لحظةٍ من لحظات اللّيل والنّهار؛ ذلك أنّ الإنسانَ يعيش في المكان الّذي ألفه فلا يكاد ينتبهُ إلى شيءٍ من مشاهده أو عجائبه؛ لأنّ "تَعَوُّدَ الناس بما بين أيديهم يصرفُ عقولهم عن التّأمّل فيما وراء ذلك من دلائل دقائقها على ما تدلّ عليه"[3]، حتى إذا سافرَ وتنقّل وساحَ استيقظَ حسّه وقلبه إلى كلّ مشهدٍ في الأرض الجديدة، ممّا كان يمرُّ على مثله أو أروع منه في موطنه دون التفاتٍ ولا انتباهٍ له، فسبحان منزّل هذا القرآن، الخبير بمداخل القلوب وأسرار النّفوس.

ولم يتقيّد الأمرُ بالسّير، بل جاء عامًا؛ لأنّ كلّ إنسانٍ في كلّ زمانٍ ومكان ليأخذَ وجوهَ العبرةِ والعظة عن طريقِ هذا السّير بما يتناسب مع عقله، وثقافته، وبيئته، وفكره، ومستواه الماديّ، والاجتماعيّ، والحضاريّ[4].

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 22/ 192.
(2) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 2/ 339.
(3) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.
(4) سيّد طنطاويّ، التّفسير الوسيط: 11/ 25.

سِرّ التقييد بالجارّ والمجرور:

مبالغةٌ في الحثّ على تتبّع أحوالِ الأمم والموجوداتِ تتبّعَ باحثٍ عن الحقّ

حرف الجرّ ﴿فِي﴾ في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بمعنى (على)، إذ ليس المقصودُ السّيرَ في جوفِ الأرض، وإنّما على ظهرها، ولكنّ البيانَ القرآنيَّ آثَرَ حرفَ الجرّ ﴿فِي﴾ الّذي يفيد الظّرفية؛ للدّلالةِ على ضرورةِ المبالغةِ في الحثّ على الإيغالِ في تتبّعِ أحوالِ الأممِ والموجوداتِ من مختلفِ الأرض في جميعِ أقطارها بجبالها وأنهارها ومحتوياتها، والمرورِ على منازلِ الأمم؛ حاضرها وبائدها ممّا لم يعتدّ رؤية أمثالها؛ للاستدلال بقدرة الله الواسعة على إمكانِ المعاد، أي سيروا سيرَ باحثٍ عن الحقّ، لا يتركُ شيئًا حتى يتفحّصه ويتأمّله.

بلاغةُ العطف بالفاء:

ترتيبُ النّظر على الأمر بالسّير مُؤْذِنٌ بِتَتَبُّعِ أحوالِ جميع أصنافِ الخلق

أفادتِ الفاءُ العاطفة في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ ترتيبَ أمرِ إبراهيم قومَه بالنّظرِ في كيفيّة خَلْقِهم ابتداءً على أطوارٍ مختلفةٍ وطبائعَ متغايرةٍ وأخلاقٍ شتّى على الأمر بالسّير في الأرض بقوله: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ﴾، أي: إنّ النّظرَ في كيفيّة الخلْقِ هو المقصدُ من السّير، وهذ التّرتيبُ الّذي أفادتْه الفاءُ العاطفة مُؤْذِنٌ بِتَتَبُّعِ أحوالِ أصنافِ الخلق القاطنينَ في أقطارها[1].

إيثارُ التّعبير بالنّظر دون سواه:

إدراكُ ما خلَقَه اللهُ بفِعلِ النَّظرِ أولَى وأشهَرُ

جيءَ في هذا الاستدلالِ المترتّب على السّير في الأرض في قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ بفِعلِ النَّظرِ ﴿فَٱنظُرُواْ﴾؛ لأنَّ إدراكَ ما خلَقَه اللّهُ حاصلٌ بطريقِ البصَرِ، وهو بفِعلِ النَّظرِ أولَى وأشهَرُ؛ ليَنتقِلَ منه إلى إدراكِ أنَّه يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخرةَ[2].

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.

عِلّة التّعبير بلفظ النّظر هنا وبالرّؤية في الّتي قبلها:

عبّر البيانُ الحكيم بلفْظِ النَّظرِ هنا فقال: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ بينما عبّر بلفْظِ الرُّؤيةِ في الآية السّابقة، فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾؛ وذلك لأنَّ العِلْمَ الحَدْسيَّ الحاصلَ مِن غيرِ طلب أتَمُّ مِن العِلْمِ الفِكْريِّ، ولأنّ الرُّؤيةَ أتَمُّ من النَّظرِ؛ وذلك لأنَّ النَّظرَ يُفْضي إلى الرُّؤيةِ، يُقال: نظرْتُ فرأيتُ، والمُفْضي إلى الشّيءِ دونَ ذلك الشّيءِ؛ فقال في الأوَّلِ: أما حصَلَتْ لكم الرُّؤيةُ؟ إنْ لا فانْظُروا في الأرضِ؛ لِتَحصُلَ لكم الرُّؤيةُ[1].

النَّظرُ طريقٌ للرُّؤيةِ والعلمِ ومُفْضٍ لهما

توجيه المتشابَه اللّفظيّ:

المتشابَه اللّفظيّ واقعٌ بين قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ وقوله جلَّ شأنُه: ﴿ثُمَّ ٱنظُرُواْ﴾ [الأنعام: 11]، فالعبارة الأولى في سورة العنكبوت: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾، والثانية في سورة الأنعام، وهي قوله تعالى: ﴿قُلْ سِيرُواْ فِي ٱلْأَرْضِ ثُمَّ ٱنظُرُواْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١١﴾﴾ [الأنعام: 11]، والرابط بينهما هو أنّه سبحانه رتّبَ النّظر والتّأمّلَ فيهما على السّير في الأرض، إلّا أنّ مَتَعَلَّقَ النّظر في آية العنكبوت هو كيفيّة الخَلْق؛ للاستدلال على المعاد، ولهذا عطف بالفاء الدّالّة على التّرتيب والتّعقيب؛ لأنّ كيفيّةَ الخلقِ أمرٌ قريبٌ من كلّ الناسِ، ويشهدُه الإنسان بأدنى نظرٍ، ولا يحتاجُ لزمنٍ قد يطولُ، وأمّا مُتَعَلَّقُ النّظر في آية الأنعام فهو عاقبةُ المجرمين للاتّعاظ بحالِ المكذِّبين، ولذا عطف بـ﴿ثُمَّ﴾ [الأنعام: 11] الّتي تفيدُ التّراخي الرُّتْبيّ؛ لأنّ النّظرَ في عاقبةِ المكذّبين يحتاجُ إلى زمنٍ يطولُ، إذ إنّ اللّهَ يمهلُ المجرمين المكذِّبين ولا يعاجِلُهم بالعقوبة.

التّعقيبُ في النّظر أو التّراخي فيه يتناسبُ مع مُتَعَلَّقِه

براعةُ الاستفهام في ﴿كَيْفَ﴾:

﴿كَيْفَ﴾ في قولِه تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ اسمُ

(1) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 40 - 41.

استفهام، وجملتُه سَدَّتْ مسدَّ مفعول ﴿فَٱنظُرُواْ﴾ المعلَّق عن العمل لفظًا بسبب الاستفهام[1]، ولسائلٍ أن يسأل: لِمَ قد علَّقَ البيانُ الحكيم النَّظر بالكيفيَّةِ، لا بالخَلقِ، ولم يقل: (فانظروا أنّ اللّه خلق)، مع أنّ الكيفيَّةَ غيرُ مَعلومةٍ؟ والجوابُ: إنَّ لدى كلّ إنسان مقدارًا معلومًا كافيًا مِن كيفيَّةِ الخَلْق، وهو أنَّه تعالى خلَقَه ولم يكُنْ شَيئًا مَذكورًا، وأنَّه خلَقَه مِن نُطفةٍ هي مِن غذاءٍ، وهذا الغذاء آتٍ مِن ماءٍ وتُرابٍ، وهذا القَدْرُ من العلم بكيفيّة الخَلْقِ كافٍ في حُصولِ العِلمِ بإمكانِ الإعادةِ؛ فإنَّ الإعادةَ مِثلُه[2].

تنبيهٌ على دليلٍ عـقـليٍّ بُـرْهـانيٍّ وهـو قـيـاسُ ما سيكونُ على ما كان

والاستفهامُ هنا مجازيٌّ لا يُقصدُ منه طلبُ الإخبار، وإنّما يَتَضَمَّنُ التّنبيهَ على دليلٍ عقليٍّ بُرْهانيٍّ، وهو قياسُ ما سيكونُ على ما كان، فالّذي بدأ الخلْقَ الأوَّلَ على غير مثالٍ سَبَقَ قادرٌ على أنْ يُعيدَهُ بعد فنائه، إنّه سبحانه لم يَعْيَ بالخلقِ الأول، أي: لم يَعْجِزْ عن خَلْقِه فكيف يَعْيا بالخلْقِ الثّاني؟!!.

دلالةُ التّكرار في الحديث عن بَدْءِ الخِلْق:

تنبيهٌ وتأكيدٌ على أهمِّ الأدلّةِ على الإحياءِ بعدَ المـوتِ والـقـدرةِ على بَدْء الخلق من جديد

أطنبَ البيانُ القرآنيُّ في حديثه عن بَدْءِ الخَلْقِ في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾؛ إذ سبقَ في الآية السّابقة قوله تعالى: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾؛ وذلك اهتمامًا به وتأكيدًا على كونه من أهمّ الأدلّة على قدرةِ اللّه سبحانه على الإحياء بعد الموت، ومن أهمّ الأدلّة على قدرةِ اللّه تعالى مطلقًا، ولذا كانتْ أوّلَى الآياتِ الّتي نزلتْ قوله تعالى: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 1].

دلالة التّعبير بالفعل ﴿بَدَأَ﴾ ماضيًا:

لـلـشَّيءِ المُتـقـرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا

جيءَ في جانبِ بَدْءِ الخلْقِ بالفعلِ الماضي ﴿بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾؛ لأنَّ السّائرَ ليس له مِن قَرارٍ في طَريقِه؛ فنَدَرَ أنْ يَشهَدَ حُدوثَ بَدْءِ

(1) الدرّة، تفسير القرآن الكريم وإعرابه وبيانه: 7/ 159.
(2) الفخر الرّازي، مفاتيح الغيب: 25/ 40.

مخلوقاتٍ، ولكنَّه يَشهَدُ مخلوقاتٍ مَبدوءةً من قبْلُ، فيَفْطَنُ إلى أنَّ الّذي أوجَدَها إنَّما أوجَدَها بعدَ أنْ لم تكُنْ، وأنَّه قادرٌ على إيجادِ أمثالِها، فهو بالأحْرى قادرٌ على إعادتِها بعدَ عدَمِها، والاستِدلالُ بالأفعالِ الّتي مَضَتْ أمْكَنُ؛ لأنَّ للشَّيءِ المُتقرِّرِ تحقُّقًا مَحسوسًا[1].

سِرّ إضمار المسند إليه (اللهُ):

أضمر البيانُ القرآنيُّ الاسمَ الجليل (اللّه) في قوله تعالى: ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ فلم يظهره؛ لأنه سبق إظهار ذكره سبحانه في قوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾، ولأنّ هذا الفعل الّذي هو ابتداءُ الخَلْقِ بعد أنْ لم يكن موجودًا لا يصلحُ إلا له سبحانه فهو المعروفُ بالقدرة على الإبداء، قال تعالى: ﴿إِنَّهُۥ هُوَ يُبْدِئُ وَيُعِيدُ ﴿١٣﴾﴾ [البروج: 13].

ابتداءُ الخَلْقِ بعد أنْ لم يكن موجودًا لا يصلحُ إلا له سبحانه

دلالة العطف بـ﴿ثُمَّ﴾:

﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأَخِرَةَ﴾ عاطفةٌ، والجملةُ معطوفةٌ على جُملةِ ﴿سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾ داخلةٌ معها في حيِّز القول[2]، أو معطوفة على قوله: ﴿بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾؛ للدّلالةِ على أنَّ الإبداءَ إنشاءٌ، والإنشاءَ إبداءٌ، لا تَفاوُتَ بينهما، وكلاهما إخراجٌ منَ العَدَم إلى الوجودِ[3].

أمرُ إعادةِ الخلق أهمُّ وأرفعُ رتبةً من بَدْئِهِ

والتّراخي الرُّتْبيّ الّذي تُفيده ﴿ثُمَّ﴾ يدلُّ على أنَّ أمرَ إعادةِ الخلْق أهمُّ وأرفعُ رتبةً من بَدْئِهِ؛ لأنّه غيرُ مشاهد، ولأنّهم ينكرونه ولا ينكرون بَدْءَ الخلْق[4].

سِرّ ذكرِ المسندِ إليه صَريحًا بعد إضمارِه:

صرّح البيانُ القرآنيُّ باسْمِ اللّه وبإيقاعِه مُبْتَدَءًا في قولِه

مَنْ عُرِفَ بالقدرةِ على الإبداءِ يُحكَمُ لَه بالقدرةِ على الإعادةِ

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 230.
(2) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(3) الطِّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 156.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 228.

سبحانه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَۚ﴾ بعدَ إضْمارِه في قولِه: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ﴾ وكان القياسُ أنْ يُقالَ: (كيف بدَأ اللّهُ الخلْقَ، ثمَّ يُنشِئُ النَّشأةَ الآخرةَ)؛ ولكنّه صرّح به مبالغةً في الاهتمامِ بشأنِ الإعادة وتفخيمًا لشأنها[1]؛ لأنّ في اسم الجلالة إحضارًا لجميعِ الصّفات الذّاتية الّتي بها التّكوين[2]؛ ولأنَّ الكلامَ معهم كان واقعًا فيها، فلمّا قرَّرَهم في الإبداءِ بأنَّه مِن اللّهِ، احتجَّ عليهم بأنَّ الإعادةَ إنشاءٌ مِثلُ الإبداءِ، فكأنَّه قال: ثمَّ ذاك الّذي أنشَأَ النَّشْأةَ الأولى هو الّذي يُنشِئُ النَّشْأةَ الآخِرةَ؛ فللدَّلالةِ والتَّنبيهِ على هذا المعنى، - وهو أنّه مَنْ عُرِفَ بالقدرةِ على الإبداءِ يُحْكَمُ لَه بالقدرةِ على الإعادةِ - أبْرَزَ اسْمَه وأوقَعَهُ مُبْتَدَءًا[3]، كما أنّ في تقديم الاسم الجليل ﴿ٱللَّـهُ﴾ على الخبرِ الفعليّ ﴿يُنشِئُ﴾ تحقيقًا للخبر، وتقويةً للحكم، وتأكيدًا للمعنى في بيانِ قدرته على تحقّق الإعادة؛ وذلك لتكرارِ الإسناد[4]؛ فكأنَّ الحُكمَ هنا ذُكر مرّتين؛ مرّةً حين أُسْنِدَ الفعلُ ﴿يُنشِئُ﴾ إلى المبتدأ، ومرّةً حين أُسْنِدَ إلى ضميره العائد إلى المبتدأ ﴿ٱللَّهُ﴾، ولو تأخّرَ المُسْنَدُ إليه فقال: (وينشئ الله) لَما تحقّق هذا التّكرار.

فائدة التّصريح بالاسم الجليل:

عـــدمُ خُـلـوِّ الجُـمـلـتين مِـن صَـريـحِ اسْـمِـه تعالى إبرازٌ لمزيدِ الاعـتـنـاءِ ببيانِ تحقُّقِ الإعادةِ

في الآيةِ السابقة صرَّحَ باسْمِه تعالى في قولِه: ﴿كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ﴾، ثمَّ أضمَرَ في قولِه: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ﴾ وهنا عكَسَ؛ حيثُ أضمَرَ في قوله: ﴿كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَۚ﴾، ثمَّ أبْرَزَه في قولِه: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ﴾؛ وذلك حتَّى لا تَخْلوَ الجُملتانِ مِن صَريحِ اسْمِه تعالى[5]، الّذي يُضفي على الآيتين جميعَ صفات الجلال والكمال والجمال، وليكونَ كلٌّ مِنْ

(1) الهَرَرِيّ، حدائق الرَّوح والرَّيْحان: 21/ 387.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(3) الزَّمَخْشَرِيّ، الكشّاف: 3/ 449، وأبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 349، والأنصاري، فتح الرّحمن، ص: 437.
(4) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35، وابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(5) أبو حيّان، البحر المحيط: 8/ 349.

صَدْر الآيتَين وعَجُزِهما مُسَجّلًا بالاسم المُتَجَلّي في هذا المقام، لِمَعْنى القدرة التّامَّةِ والعالميَّة الكاملة[1]، وهو بهذا أظهرَ الاسمَ الجليل مرّة مع بَدْءِ الخَلْقِ، ومرّةً مع إعادته، فحصل التّكاملُ بين الجملتين.

دلالة التّعبير بالفعل ﴿يُنشِئُ﴾ مضارعًا:

تجديدٌ مستمِرٌّ لإحياء الخَلْق يحمل على تعزيز الإيمان بقدرةِ الله المطلقة

التّعبير بصيغة المضارع للفعل ﴿يُنشِئُ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾، يؤكّدُ على حدوثِ النّشأةِ في المستقبل القريب وتجددِّها المستمرّ، ممّا يجعل حَدَثَ الخَلْقِ يبدو وكأنّه مَرْئيٌّ قريبٌ محدّدٌ في الزّمان والمكان، ويفيد تصويرَ حَدَثَ الإنشاء بما يحمله الذّهن من صورِ الإنشاء الأوّل، أي: يجعله يبدو وكأنّه يحدثُ أمام القارئ في اللّحظة الحاليّة، بما يعزّزُ عنده الإيمان بقدرةِ الله المطلقة بإحياء الخلق بعد الموت.

سِرّ التّعبير بلفظ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ معرّفًا:

الحياةُ الأولى خَلْقٌ للفناءِ، والحياةُ الآخرة خَلْقٌ للبقاء

المرادُ بالنّشأة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ هي الإحياءُ والإعادةُ بعد الموت، وهي معروفة؛ إذ لام التّعريف في لفظ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾، عهديةٌ معهودُها ذِكْريٌّ؛ إذ سَبَقَ ذِكْرُ الإعادة في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُهُۥ﴾[2]، كما ورد في الحديث الصحيح: «يقال: يا أَهْلَ الجَنَّةِ خُلودٌ فلاَ مَوْتَ، ويا أَهْلَ النّارِ خُلودٌ فلاَ مَوْتَ»[3]، كما أنّ خَلْقَ الإعادة مختلفٌ فلا تطرأُ عليه التّغيّرات، كما ورد عن النّبيّ ﷺ أنّ أهلَ الجنّةِ يَشِبّون فلا يَهْرَمون، ويَصِحّون فلا يمرضون، ويسعدون فلا يَشْقَون، ويَحْيَون فلا يموتون، أمّا في الدّنيا فهي دار التّقلّبات؛ صحّةٌ يعقُبُها مرضٌ، وقوّةٌ يعقُبُها ضَعْفٌ، كما أنّ أهل

(1) الطّيبيّ، فتوح الغيب: 12/ 157.

(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

(3) متّفق عليه، فهو عند البخاريّ في صحيحه في كتاب تفسير القرآن، باب: ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ ٱلْحَسْرَةِ﴾ [مريم: 39]، برقم: (4730)، وعند مسلم في صحيحه في كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها، باب: النّار يدخلها الجبّارون والجنّة يدخلها الضّعفاء، برقم: (2849).

الجنّة أنشأهم الله نشأةً حسنةً فكلُّهم على طولِ آدم، وفي حُسْنِ يوسفَ عليه السلام.

الغرضُ من الجناس الاشتقاقيّ:

جمـاليّـةٌ في السّمعِ وتأكيدٌ عـلى أهـمّـيّـة المقول

بين اللّفظين ﴿يُنشِئُ﴾ و﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ جناسُ اشتقاقٍ[1]؛ إذ يجمعُهما جذرٌ لغويٌّ واحدٌ هو (نَشَأ)، إلّا أنّ لفظَ ﴿يُنشِئُ﴾ أتى بصيغةِ الفعلِ المضارع، ولفظَ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ أتى بصيغة الاسم، ممّا يُعطي جماليَّةً في السّمعِ، ويحملُ على الإصغاءِ، ويزيدُ المعنى وُضوحًا ويُساعدُ على ترسُّخِهِ في الذّهن.

توجيه القراءات في ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ وبلاغتها:

الـجـمـع بـين المـصـدر واسـم المـصـدر لإثـراء المعنى

قرأ ابن كثير وأبو عمرو بِألِفٍ بَعْدَ الشّين: ﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾، وقرأ الباقون بإسْكانِ الشّينِ مِنْ غَيْرِ ألِفٍ فيها: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾[2] وهما لغتان؛ كالرأفة والرّآفة والكأبة والكآبة وقيل: ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾: بغير مدٍّ: اسم المصدر كـ: (العطاء)، و﴿ٱلنَّشَآءَةَ﴾ بالمد هو المصدر كـ: (الإعطاء)، يدل على المدَّة الثانية في الخلق كالكرَّة الثانية، فهو مصدر صدر عن غير لفظ ﴿يُنشِئُ﴾، ولو صدر عن لفظ ﴿يُنشِئُ﴾ لقال: (الإنشاءة الآخرة)، والتقدير فيه: (ثم الله ينشئ الأموات، فينشؤون النشأة الآخرة)، فهو مثل قوله: ﴿وَأَنۢبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]، ومثل قوله: ﴿وَتَبَتَّلْ إِلَيْهِ تَبْتِيلًا﴾ [المزمل: 8]، ومثل قوله: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ نَبَاتًا﴾ [نوح: 17][3]:

سِرُّ وصْفِ ﴿ٱلنَّشْأَةَ﴾ بـ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾:

كلتا النَّشأتين شأنٌ واحدٌ من شؤونِ الله ولا فرقَ بينهما إلا بالأوّليّةِ والآخريّةِ

في وصْفِ النَّشأة بـ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ أي: بعدَ النَّشأةِ الأولى الّتي شاهدتُموها إيماءٌ بأنَّها

(1) الهَرَريّ، حدائق الرَّوح والرَّيحان: 21/ 388.
(2) ابن الجزري، النشر: 2/ 343.
(3) مكّي، الكشف: 2/ 178.

مُساويةٌ للنَّشْأةِ الأولى؛ لأنّ وصْفَ النّشأة بأنها (آخرة) دليلٌ على أنّهما نشأتان، وأنّ كلَّ واحدةٍ منهما إنشاءٌ، أي: ابتداءٌ واختراعٌ وإخراجٌ من العدم إلى الوجود؛ فلما قرّرهم في الإبداء بأنّه من الله احتجَّ عليهم بأنّ الإعادةَ إنشاءٌ مثلُ الإبداء، فإذا لم يُعْجِزْه الإبداءُ وجَبَ ألّا تُعْجِزَه الإعادة، فكأنّه قال: ثُمّ ذلك الّذي أنْشَأ النَّشأة الأولى هو الّذي يُنْشِئُ النَّشْأةَ الْآخِرَةَ[1]، فلا شُبْهةَ لهم في إحالةِ وُقوعِ النّشأة الآخرة[2]، كما لم تكنْ شُبهةٌ في وقوع النّشأةِ الأولى فكلاهما شأنٌ واحدٌ من شؤونِ الله تعالى حقيقةً واسمًا، ولا فرقَ بينَهما إلّا بالأوّليّةِ والآخريّةِ[3].

سِرّ المغايرة بذكر ﴿ٱلْآخِرَةَ﴾ و﴿ٱلْأُولَىٰ﴾ في الواقعة:

تفنُّنٌ في البيان وتنشيطٌ للأذهان وتأكيدٌ على المعاد

في قوله تعالى في سورة الواقعة: ﴿وَلَقَدْ عَلِمْتُمُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْأُولَىٰ﴾ [الواقعة: 62]، وصَفَ البيانُ الحكيم النّشأة بأنّها الأولى؛ رغم أنّ النّشأةَ على وزن (فَعْلَة)، أي: المَرّةُ من النَّشْءِ على سَبيلِ المُشاكَلةِ التَّقديريَّةِ؛ لأنَّ قولَه قبْلَه: ﴿وَنُنشِئَكُمْ فِي مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾﴾ [الواقعة: 61] يَتَضَمَّنُ النَّشْأةَ الآخِرَةَ، فعبَّرَ عن مُقابلتِها بالنَّشأةِ الأولى، فالمراد بالنّشأة الأولى ابتداءُ الخَلْق، فجاء وصْفُها بالأولى، وأمّا في سورة العنكبوت في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْآخِرَةَ﴾ فقد وصَفَ النّشأةَ بالآخِرَة لِتُشيرَ كما مَرَّ على مساواتها للنّشأة الأولى في بداية الآية ﴿فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ﴾[4]، فالمراد بالنّشأة الآخرة الإحياءُ بعد الموت، ولهذا وصَفَها بالآخرة، وهذا التّغايرُ بين الأسلوبين جاء تَفَنُّنًا في البيان وتنشيطًا للأذهان وتأكيدًا على الرجوع إلى الله.

(1) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 671.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(3) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

بلاغةُ الفصل في قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾:

مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ فلن يتردّد في الإيمان بقدرته على الإعادة

فَصَلَ البيانُ القرآنيُّ قوله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ عمّا قبله ﴿ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشۡأَةَ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾، ولم يربطهما بعاطف؛ لِما بينهما من كمالِ اتّصالٍ؛ إذ جاء قولُه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ تَعليلًا لِما قبْلَه بطريقِ التَّحقيقِ؛ فإنَّ مَن عَلِمَ قُدرتَه تعالى على جَميعِ الأشياءِ الّتي مِن جُملتِها الإعادةُ، لا يُتَصوَّرُ أنْ يَتردَّدَ في قُدرتِه عليها ولا في وُقوعِها بعدَ ما أخبَرَ به[1]، وتأكيدًا لشمول قدرته فإنّه سبحانه لا يُعْجِزُ قدرتَه شيءٌ، تنزيلًا لهم منزلةَ المُنْكِر لإنكارهم البعثَ[2].

الرّابط المعنوي بين مواضع ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ الثّمانية:

قوّةُ تأثيرِ قدرةِ الله المطلقة على النَّفس بجميع أحوالها تثبيتًا وتطمينًا

ورد قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ في ثمانية مواضع هي: [البقرة: 20، 109، 148]، و[آل عمران: 165]، و[النحل: 77]، و[النور: 45]، و[العنكبوت: 20]، و[فاطر: 1] والرّابط المعنويُّ بينها جميعًا أنّها جاءت تذييلًا يناسبُ المعاني الّتي تتضمّنَتْها آياتُها، وهو تأكيدُ قدرةِ الله تعالى المطلقة على كلِّ شيء من المادّيّات والمعنويّات، والمشاهدات والغيبيّات، مِن إذهابِ أبصارِ المنافقين وأسماعِهم، ونصرِ المؤمنين على أهل الكتاب المعتدين، وقدرتِه على الخَلْقِ والعِلْمِ بهم أينما كانوا، وقدرتِه على نُصرةِ الحقّ، وقدرتِه على أمرِ الغيبِ وأمرِ السّاعة وقدرتِه على الخَلْقِ مهما تنوّعَتْ أشكاله، وقدرتِه على الإعادة بعد الموت، وأنّها جاءتْ كلُّها بالعدول عن إضمارِ الاسم الجليل إلى إظهاره؛ لِما فيها من استقلالٍ دلاليٍّ، لها أثرٌ قويٌّ على النّفس البشريّة تثبيتًا وتطمينًا، بما يجعلُها تجري مجرى المثل السّائر؛ تعليمًا للعباد أنْ يقولوا في كلّ شؤون حياتهم؛ في النّوائب والجوائح والنّصر والظّفر: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾، بما يُدْخِلُ الطّمأنينةَ على قلوبهم والإقناعَ على عقولهم.

(1) أبو السّعود، إرشاد العقل السّليم: 7/ 35.
(2) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.

بلاغة توالي المؤكّدات:

تأكيدٌ لكمالِ قدرةِ الله، وتهديدٌ للمشركين، وتطمينٌ للمؤمنين

توالتِ المؤكّدات في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ بدايةً من الجملة الاسميّة، الّتي تَدلُّ على الثّباتِ وقوّةِ الحُكْم وبَقائِهِ، فقدرةُ الله ثابتةٌ دائمةٌ، ثُمَّ حرف ﴿إِنَّ﴾ الّذي يفيدُ توكيد النّسبة بين المسندِ والمسندِ إليه، ثم تقديم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على الخبر ﴿قَدِيرٞ﴾؛ الّذي يؤكّدُ اختصاصَ الله بهذه القدرةِ المطلقة، ثمّ إظهار الاسم الجليل ﴿ٱللَّهَ﴾، وأخيرًا ختمَ الجملة بصفة ﴿قَدِيرٞ﴾ على وزن (فَعيل)، وهو من صيغِ المبالغة، وكلّ هذه المؤكِّدات مجتمعةً تفيدُ المبالغةَ في تأكيدِ كمالِ قدرة الله تعالى وإحاطتِه بكلّ شيء، وتفيد تهديدَ المشركين، وتحذيرَهم من الحساب والجزاء بعد هذا البيان، فهو يعذّبُ من يشاء بعدله، فلا يقدرُ أحدٌ بشفاعة ولا بغيرها على الحماية منه، كما يُطمْئِنُ المؤمنين فهو يرحمُ من يشاء بفضله، فلا يقدرُ أحدٌ على أنْ يَمَسَّه بسوءٍ[1].

سِرُّ وضْعِ الاسم الظاهر موضع المضمر:

تأكيدٌ على أنّ شمولَ القدرةِ لجميعِ الأشياء من أحكامِ الألوهيّة

اسمُ الجلالِ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ ظاهر لا مضمر إذ لم يقل: (إنّه على كلّ شيء قدير) رغم أنّه قد سَبَقَ ذِكْرُه في الآية؛ لِتَكونَ جُملةَ التَّذييلِ مُستقِلَّةً بنفْسِها، فتَجْري مَجرى الأمثالِ[2]، ولِتُقرِّر أنّ اللّهَ في كلِّ أفعاله لا سيما هذا مطلَقٌ غيرُ مُقَيّدٍ بجهةٍ من الجهات، ولا مشروطٍ بأمرٍ من الأمور[3]، ولِما في ذِكْرِ اسم اللّه من الهيْبةِ والتّعظيم، فهو أهيبُ أسماءِ الله، بما يؤكّدُ قدرةَ الله في بَدْءِ الخَلْقِ وإعادته، فإنّ شمولَ القدرةِ لجميعِ الأشياء من أحكامِ الألوهيّة، مع التّيَمُّن بذكره[4].

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 418.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.
(3) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.
(4) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.

سِرّ إضافة لفظ ﴿كُلِّ﴾:

بيانٌ للإحاطة التّامّة لقدرة الله على كلّ شيءٍ

﴿كُلِّ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ من ألفاظ العموم، الّتي تدلُّ في الآية على عموم قدرته سبحانه، ولكنّ إضافتُها إلى لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ المفيد كذلك للعموم وهو نكرة أفادَ استقصاءَ العموم والشُّمولَ لكلِّ ما يصْلُحُ أنْ يُطلَقَ عليه لفظُ شيء، ويتصوّرُه الذّهن، أي أفاد الإحاطةَ التّامّةَ لقدرته سبحانه على كلّ شيء.

الغرض من تقديم الجارّ ومجروره على الخبر:

عظمةُ قدرة الله وشمولُها يُذخلانِ الطّمأنينةَ على القلوب والإقناعَ على العقول

قدّم النّظم الحكيم شبه الجملة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ على المسند ﴿قَدِيرٞ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾؛ اهتمامًا بالمُقدَّم وتشويقًا للمؤَخَّر؛ فالأهمُّ في السّياق هنا بيانُ كمال استعلائِه وكمالِ قدرتِه، فالإحاطةُ والشّمولُ الّتي يفيدهما الجارُّ والمجرور هما المراد من الإخبار، ثم يأتي بيانُ: على أيّ صفةٍ كانت هذه الإحاطةُ وهذا الشّمولُ؟ وهي القدرةُ العُظْمى، كما أنّه إذا ما سمع المخاطَبُ قوله: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ﴾ تَطَلَّعَ إلى الخبر ما يكون؟ فيأتيه قولُه ﴿قَدِيرٞ﴾، وهو المُتَطَلِّع إلى أنْ يعرفه مِنْ بعد أنْ ملأ سمعه وقلبه بالتّهديد والوعيد الّذي فاضَتْ به الجمل السّابقة، فيستقرّ المعنى في قلبه ويقيمُ فيه[1]، كما أنّ في التّقديم تأكيدَ اختصاصِ الله بهذه القدرة المطلقة، وأنّ هذا الاختصاصَ أمرٌ مستقرٌّ في اعتقادِ المخاطَبين، بما يُدْخِلُ الطّمأنينة على القلوبِ ويُقنِعُ العقول، ومراعاةً لعادةِ القرآن في كلّ المواضع المشابهة؛ إذ لم يأتِ في القرآن الكريم تقديمُ (قدير) على متعلِّقه: (على كلِّ شيءٍ)[2].

دلالة التّعبير بلفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ وسِرّ تنكيره:

لفظ ﴿شَيۡءٖ﴾ يُطلق على المعدوم والموجود، وقد أفادَ استعماله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٞ﴾ أنّه تعالى على كلِّ

(1) محمود توفيق، شذرات الذّهب دراسة في البلاغة العربيّة، ص: 61.
(2) محمود توفيق، شذرات الذّهب دراسة في البلاغة العربيّة، ص: 61.

شيءٍ ممّا في السّموات والأرض وممّا هو خارج (عنهما) قدير[1] وتنكيره مبالغةٌ في تأكيدِ عموم قدرةِ الله تعالى وخاصّة أنّه أُضيف إلى لفظ ﴿كُلِّ﴾، وهو من ألفاظِ العموم، أي: أنّ قدرةَ الله تشملُ كلّ شيءٍ مهما كان، وفي أيّ حالٍ كان، ومراعاةً لعادة القرآن؛ فإن لفظَ ﴿شَيْءٍ﴾ لم يَرِدْ في القرآن إلا نكرةً.

شمولُ قدرةِ الله تعالى لكلّ شيء مهما كان وفي أيّ حالٍ كان، مع المبالغة في تأكيد العموم

دلالةُ الوصف بِزِنَةِ (فَعيل) في ﴿قَدِيرٌ﴾:

معنى ﴿قَدِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ هو: قادر[2] لكنَّ البيانَ الحكيم آثر لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ مبالغةً في بيانِ قدرةِ الله المطلقة على إنشاء جميع خلقه بعد إفنائه كهيئته قبل فنائه، وعلى غير ذلك ممّا يشاء موجودًا أو معدومًا، وأنّ ذلك ثابتٌ لازمٌ له ﷻ فلا يُعْجِزُه شيء[3] لأنّ لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾ من صيغ المبالغة على وزن (فعيل)، كما أنّ الوصف بزنةِ (فعيل) يناسبُ السّياق الّذي يدلُّ على العموم لاستعماله لفظ ﴿كُلِّ﴾ وإضافتها إلى نكرة ﴿شَيْءٍ﴾، ويناسبُ عادةَ القرآن الأغلبيّة، وهي أنّه حيث يُعمِّم القدرة ﴿عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يأتي بصيغة المبالغة ﴿قَدِيرٌ﴾ وحيث يُقيِّدها يأتي باسم الفاعل (قادر) وهذا هو الفارق الدَّلاليّ بين اسم الفاعل وبين صيغة المبالغة الّتي تدلّ على التّكثير[4] فهو قديرٌ سبحانه، وقدرته مطلقةٌ محيطةٌ لا يُعْجِزُها شيءٌ.

مبالغةٌ في بيان قدرةِ الله المطلقة وأنّها ثابتةٌ لازمةٌ له ﷻ

فائدة تذييل الآية بصفة القدرة:

ذيّلَ البيانُ الإلهيُّ قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ بصفة القدرة؛ مبالغةً في تأكيدِ مضمون ما قبلَه وتقريرِه؛ والمعنى: قديرٌ على البعث وعلى كلِّ شيء إذا أراده[5]، فإنّ كمالَ قدرته تعالى

كمالُ قدرةِ الله على جميع الأشياء موجبٌ لقدرته على النّشأة الأولى والآخرة

(1) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 1/ 338.
(2) النّسفيّ، مدارك التّنزيل: 2/ 671.
(3) ابن جرير، جامع البيان: 20/ 21.
(4) فاضل السّامرّائيّ، لمسات بيانيّة لسور القرآن: 4/ 325.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 20/ 231.

على جميعِ الأشياء موجبٌ لقدرته على ما ذكرَ من أنّه يُبدئ الخلقَ ثمّ يعيده، أي: ينشئُ النّشأةَ الآخرة بعد النّشأةِ الأولى، كما أنّ قدرته لذاته ونسبة ذاته إلى كلّ الممكنات على سواء[1]، فيَقْدِرُ على النَّشأةِ الأُخرى كما قدرَ على النّشأة الأولى[2].

وسببُ التّفاوت والاختلاف بين تذييلِ هذه الآية والّتي قبلها، ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ﴾ هو أنّ الآيةَ الأولى تُعالجُ مطالَعَةً محدودةً، وهي مشاهدةُ الآيات في الأنْفُس، أمّا الثّانية فتعالجُ وتبيّن مطالَعَةً وسيعَةً جدًّا، وهي مشاهدةُ الآيات في الآفاق.

الغرض من تنكير ﴿قَدِيرٌ﴾:

نكّرَ النّظمُ الحكيم لفظ ﴿قَدِيرٌ﴾؛ لإفادة معنى التّعظيم والتّفخيم لقدرةِ الله سبحانه فهي قدرةٌ عظيمةٌ فخمة لا يُقادر قدرها، ولا يُحدُّ حدّها.

❁ الفُروقُ المُعْجَميَّةُ:

(ينُشئ) و(يُحدث):

الإنشاءُ هو الابتداءُ والارْتِفاع[3]، وهوَ الإحداثُ حالًا بعد حالٍ من غير احتذاءٍ على مِثال[4]، وكلّ من ابتدأ خَلْقَ شيءٍ واخترعه فقد أنشأه، والإنْشاءُ: إحداثُ الشّيءِ وإيجاده وتربيتُهُ[5]، والإحداثُ هوَ كَوْنُ الشّيْءِ لَمْ يَكُنْ[6]، وأحْدَثَه: ابْتَدَأَهُ وابْتَدَعَهُ، ولم يكنْ قبلُ[7]، وحَدَثَ الأمرُ: وقعَ، وأحدثه اللّه: أوْقَعَه وأظْهَرَه[8]، فيشترك لفظُ

الإنشاءُ إيجادُ الشّيء، وإحداثه حالًا بعد حال

(1) البِقاعيّ، نَظْمُ الدُّرَر: 14/ 417.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والزَّبيديّ، تاج العروس: (نشأ).
(4) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 134.
(5) الرّاغب، المفردات، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (نشأ).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة: (حدث).
(7) الزَّبيديّ، تاج العروس: (حدث).
(8) محمّد جبل، المعجم الاشتقاقيّ: (حدث).

الإنشاء والإحداث في معنى الابتداء، ويتميّز الإنشاء بمعنى إيجادِ الشّيء حالًا بعد حالٍ من غير احتذاءٍ على مِثال، ويكون من غير سَبَب، ويتميّز الإحداث بمعنى إيجاد الشّيْء بعد أنْ لم يكن، ويكون بِسَبَبٍ وبغير سَبَبٍ[1]، وقد ناسبَ هنا التّعبير بالإنشاء، للتّنبيه على أنّ الإبداءَ يُسَمّى نشأةً أولى، كالإعادة، ويكون التّغايُرُ بينهما بالوصف، حيث قالوا: نشأةٌ أولى، ونشأةٌ أخرى، فالإبداءُ والإعادة نشأتان من حيث إنّ كلًا منهما اختراعٌ وإخراجٌ من العدم[2].

الآخرة والثّانية:

النّشأةُ الآخرة هي الّتي تأتي بعد النّشأة الأولى، فلا فناءَ ولا نشأةَ بعدها

الآخِرُ هو الّذي يبقَى بعدَ هلاكِ كلِّ شيءٍ، فهو موضعٌ للنِّهاية، وهو تالٍ لِلْأوَّلِ، وتأنيثُ (الآخرة) آتٍ على مُقابَلَةِ (الأولى)، ونَقيضِ المتقدِّمَة[3]، و(الآخِر) ما كان قبلَه سابقٌ، وسُمّيَتِ الْآخِرَةُ (آخِرَةً)؛ لِأنَّها بعد الدُّنْيا[4]، فالدّارُ الآخِرة: هي دارُ البقاءِ بعد الموت[5]، وأمّا الثّانية: فتُقال باعتبارِ العدد، وأصلُه يدلُّ على تَكْرير الشّيْءِ مَرَّتَيْن، أوْ على جَعْلِهِ شَيْئَيْنِ مُتَواليَيْنِ أوْ مُتَباينَيْنِ[6]، والاثْنان: ضِعْفُ الواحد، والثّاني اسمٌ للعدد الكائن بين الواحد والثّلاث[7]، والخلاصة أنَّ كُلًّا من (الآخرة) و(الثّانية) تأتي بعد الأولى، إلا أنّ الآخرةَ لا شيءَ بعدها، بينما الثّانيةُ تشيرُ إلى العددِ والتّسلسل، وتكريرِ الشّيء مرّتين، وتأتي بعدها الثّالثة، ومن هنا ناسبَ التّعبيرُ بالآخرة في الآية دون الثّانية؛ لأنّ النّشأةَ الآخرة لا نشأةَ بعدها، فهي لا تتكرّر، وتكون من أجل البعث والجزاء فلا فناءَ بعدها.

(1) العسكريّ، الفروق اللُّغويّة، ص: 134.
(2) البَيضاوِيّ، أنوار التّنزيل: 4/ 191، والهَرَرِيّ، الرّوح والرَّيْحان: 21/ 389.
(3) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والسّمين الحلبيّ، عُمدَةُ الحُفّاظ: (أخر)، والفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 89.
(4) ابن الجوزيّ، نزهة الأعين، ص: 149.
(5) أحمد مختار عمر، معجم اللّغة العربيّة المعاصرة: (أخر).
(6) ابن فارس، مقاييس اللّغة، والرّاغب، المفردات: (ثنى).
(7) الفيروزآبادي، بصائر ذوي التّمييز: 2/ 94.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد الثاني والأربعون،
سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1446هـ - 2024م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2024م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2024.
مج. 42 ، 800 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-732-93-8
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 42 : المجلد الثاني والأربعون، سورة العنكبوت من الآية 04 إلى سورة الرّوم الآية 07.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-732-93-8
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-2154237 بتاريخ 2024/12/25م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»